الفصل الثالث

الظواهر السياقية فى الصوامت

المبحث الأول
(الإدغام أو المماثلة)

● **تعريف الإدغام:**

الإدغام (بسكون الدال) مصدر الفعل الرباعى أدغم، وبتشديد الدال مصدر الفعل الخماسى ادَّغم بوزن افتعل، وهو ظاهرة لغوية تجرى على ألسنة العرب، قال أبو عمرو بن العلاء: الإدغام كلام العرب الذى يجرى على ألسنتها ولا يحسنون يغيره[1].

ومعناه فى كلام العرب الإدخال، يقال: أدغمت اللجام فى فم الدابة، أى أدخلته فيه، ويجىء بمعنى التغطية، يقال: أدغمت الشىء بمعنى غطيته[2].

ويطلق اللغويون الإدغام ويريدون منه إدخال الحرف فى الحرف، وهو محتمل لأن يكون الداخل غالبًا بالنظر إلى قولهم: دغم الغيث الأرض يدغمها، وأدغمها: إذا غشيها وقهرها، ومحتمل لأن يكون الداخل مغلوبًا بالنظر إلى قولهم: أدغمت اللجام فى فم الفرس إذا أدخلته فيه، وقول الأزهرى إدغام الحرف فى الحرف مأخوذ من هذا[3] يشير إلى كثرة فناء الحرف الأول فى الثانى واستتاره فيه كما يستتر اللجام فى فم الفرس.

والإدغام فى اصطلاح النحويين: أن تصل حرفًا ساكنًا بحرف مثله متحرك

---

(١) النشر فى القراءات العشر ١ / ٢٧٥.

(٢) تهذيب اللغة للأزهرى ٨ / ٨٧ بتصرف.

(٣) اللسان ٢ / ١٣٩١ (دغم) بتصرف، وقارن مع أثر القراءات فى الأصوات والنحو العربى ١٢٢.

من غير أن تفصل بينهما بحركة أو بوقف، فيصيران لشدة اتصالهما كحرف واحد، يرتفع اللسان عنهما رفعة واحدة، شديدة، فيصير الأول كالمستهلك لأنه على حقيقة التداخل والإدغام، وذلك نحو شدّ ومدّ ونحوهما[١].

وقد عرفه ابن أبى مريم بقوله: الإدغام أن تصل حرفًا ساكنًا بحرف متحرك مثله أو مقاربه، فينبو اللسان عنهما نبوة واحدة..، بمعنى أنه إذا وقع فى كلمة حرفان مثلان ثقل على المتكلم من جهة أنه إذا ترك مخرج حرف وعاد إليه كان بمنزلة من قطع مسافة ثم رجع القهقرى، وهذا ثقيل عندهم، فإذا أمكن أن ينبو اللسان عنهما نبوة واحدة كان أسهل من تحريكهما بحركتين مع اتفاقهما[٢].

وبناء على ذلك يحدث الإدغام نوعًا من التخفيف والسهولة فى النطق، والاقتصاد فى المجهود العضلى؛ لأن التلفظ بحرف من مخرج والرجوع إلى ذات المخرج للنطق بذات الحرف مرة أخرى يشبه مشى المقيد[٣].

وهناك شروط يلزم توافرها لصحة الإدغام، وله أقسام، وأحكام من الوجوب أو الجواز يرجع إليها فى مظانها من يريد الإحاطة بها[٤].

وقد يتسع مفهوم الإدغام لأنواع كثيرة من تأثر الأصوات اللغوية بعضها ببعض فى المتصل من الكلام، وذلك ما أشار إليه ابن جنى عند حديثه عن الإدغام الأصغر، الذى عرفه بأنه «تقريب الحرف من الحرف وإناؤه منه من غير إدغام يكون هناك» أى من غير مزج ولا خلط ولا إفناء له فى غيره، وهو يشمل نحو أحد عشر نوعًا من التقريب بين الصوامت أو بين الحركات[٥].

وهذا التصور للإدغام كان سيبويه قد سبق إليه عندما تحدث عن المضارعة

---

(١) شرح المفصل لابن يعيش ١٠/ ١٢١.

(٢) الموضح فى وجوه القراءات وعللها لابن أبى مريم ١/ ١٩٣، ١٩٤، تحقيق عمر الكبيسى.

(٣) الممتع لابن عصفور ٦٣١، وشرح المفصل ١٠/ ١٢١ بتصرف.

(٤) ينظر فى ذلك بحث للدكتور عبدالغفار هلال بعنوان «الإدغام والفك بين القراء واللغويين» ص ٥٠ وما بعدها من مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة – العدد الثامن ١٩٩٠م.

(٥) يراجع الخصائص لابن جنى ٢/ ١٤١ – ١٤٥.

أو التقريب بين الحروف[1]، وهو ينطبق إلى حدّ كبير على فكرة المماثلة بوجه عام[2].

وكنا قد ذكرنا فى المبحث الأول من الفصل الثانى تعريف المماثلة، وأقسامها إلى كلية وجزئية، وإلى تقدمية ورجعية بما يغنى عن إعادة الكلام عليه هنا، وبينا أن المماثلة تقع بين الصوائت وعرضنا للأمثلة التطبيقية التى توضح ذلك.

وها نحن الآن نعرض لما ورد فى قراءة يحيى بن وثاب من الشواهد على المماثلة بين الصوامت:

● من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٦٣].

قرأها يحيى بن وثاب «وادَّكِرُوا» بالدال المهملة المشددة[3]، ووزنه افتعلوا، مأخوذ من الذكر.

وأصل «ادّكِرُوا»: اذتكروا، بتاء الافتعال بعد الذال التى هى فاء الكلمة، ولما كان فى النطق بالتاء المهموسة بعد الذال المجهورة شىء من الثقل أبدلت العرب التاء إلى حرف يوافقها فى المخرج ويوافق الذال فى صفة الجهر، فصارت الكلمة «اذدكروا» بالدال فى مكان التاء لتماثل الذال فى الجهر، وهذا يقال له المماثلة التقدمية فى الصفة.

ثم حدث تقريب أكثر بين الذال والدال، فكانت قراءة عبدالله بن مسعود «واذَّكروا»[4] بالذال المعجمة المشددة، بعد أن قلبت الدال المهملة إلى الذال المعجمة، وتم إدخال الأولى فى الثانية، وهذا يقال له إدغام، ويقال له مماثلة تقدمية؛ لأن الصوت الأول وهو الذال أثر فى الثانى وهو الدال فجذبه إلى مخرجه.

وعلى ذلك أيضًا وردت قراءة الحسن ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف: ٤٥]، بالذال المعجمة المشددة[5] بعد حدوث المماثلة على النحو السابق.

---

(١) يراجع الكتاب ٤ / ٤٧٧ وما بعدها.

(٢) ينظر أثر القراءات فى الأصوات والنحو العربى ١٢٣.

(٣) المختصر لابن خالوية ١٢.

(٤) معانى القرآن للفراء ١ /٢٨ وما بعدها.

(٥) المختصر لابن خالوية ٦٨.

وأما قراءة يحيى بن وثاب «وادّكروا» بالدّال المهملة المشددة[1]، فقد قلبت الذال المعجمة فيها إلى الدال المهملة، وتم إدخال الأولى فى الثانية، وهذا إدغام، ومماثلة رجعية؛ لأن الصوت الثانى وهو الدال أثر فى صوت الذال المعجمة، وجذبه إلى مخرج الدال المهملة.

وهنا نلحظ أن الصيغة التى جاءت عليها قراءة يحيى بن وثاب هى الصورة الشائعة فى كلام العرب، وهى التى جرت عليها القراءة المشهورة لآية يوسف ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾[2] بالدال المهملة المشددة، وآيات سورة القمر ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[3] بالدال المهملة المشددة أيضًا.

● ومن شواهد المماثلة فى الصوامت قوله تعالى: ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٢٢].

قرأه الحسن والأعرج ومجاهد وابن وثاب «يخصفان» بفتح الياء[4] وكسر الخاء، والصاد المشددة المكسورة[5].

قال ابن جنى: «وأما قراءة الحسن «يخصِّفَان» فإنه أراد بها يفتعلان، من خصفت، كقولهم: قرأت الكتاب واقترأته، وسمعت الحديث واستمعته، فآثر إدغام التاء فى الصاد فأسكن التاء، وكانت الخاء قبلها ساكنة، فكان لابد من كسرها؛ لالتقاء الساكنين، فصارت «يَخصِّفان»[6].

ومفاد كلامه أن الأصل «يختصفان»، تأثر الصوت الأول «التاء» بالصوت

---

(١) المختصر لابن خالوية ١٢.

(٢) يوسف: ٤٥ ولم يقرأها بالذال المعجمة المشددة سوى الحسن من القراء الأربع عشر. ينظر الإتحاف ٢٦٥ مطبعة حنفى بمصر.

(٣) سورة القمر الآيات ١٥ – ١٧ – ٢٢ – ٣٢ – ٤٠ – ٥١.

(٤) ضبطت الياء بالكسر سهوا فى ص ٤٠ سطر ١٣ مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة – العدد الثامن.

(٥) المحتسب ١/ ٢٤٥ الأصل والهامش، والبحر المحيط ٥/ ٢٧، والدر المصون ٣/ ٢٥١ ط ١٩٩٤م.

(٦) السابق من المحتسب مع تصرف يسير.

الثانى «الصاد»؛ لأن الثانى أقوى بما فيه من الإطباق والاستعلاء والصفير، فلزم أن تصير التاء إلى مخرج الصاد؛ من أجل المحافظة على تلك الصفات المميزة للصاد. ولزم الإدغام لما اجتمع المثلان، ولزم إسكان الأول ليتم الإدغام، ولزم كسر الخاء لئلا يلتقى الساكنان، أو «أتبعت الخاء للصاد فى حركتها»[1] فصارت الصيغة على النحو الذى وردت به قراءة الحسن وابن وثاب ومن معهما، ويسمى هذا الذى حدث بالمماثلة الرجعية، حيث تأثر الصوت الأول «التاء» بالصوت الثانى «الصاد» على النحو الذى بيناه.

● ومن الشواهد أيضًا قوله تعالى: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا** ﴾ [الأعراف: ٣٨].

روى مكى عن مجاهد بن جبير أنه قرأ ﴿ **ادَّرَكُوا** ﴾ بوصل الألف، وفتح الدال المشددة، وفتح الراء، وأصلها (ادْتركوا) على وزن افتعلوا مبنيا للفاعل، ثم أدغم كما أدغم (ادَّان) من الدين[2]، أى أبدل التاء دالا، وأدخل الدال الأولى فى الثانية على سبيل المماثلة التقدمية.

وقرأه مجاهد وحميد ويحيى وإبراهيم: «إذآ ادَّاركوا»[3]، وفيها شيئان:

الأول: ﴿ **ادَّارَكُوا** ﴾ أصلها «تداركوا» بوزن تفاعلوا، وظهور التاء فيها هو قراءة ابن مسعود والأعمش ورويت عن أبى عمرو، أى قرأ هؤلاء «تداركوا»، وهى أصل قراءة العامة[4] أما يحيى ومن معه فاجروا الإدغام أو المماثلة الرجعية، وذلك بأن أثر الثانى (الدال) وهو الأقوى لما فيه من الجهر فى الأول (التاء)، فتحولت التاء إلى مخرج الدال وأسكن الأول للإدغام، وأتى بهمزة الوصل ليمكن النطق بالساكن.

الثانى: لما أجرى المنفصل وهو الظرف (إذا) والفعل (ادّاركوا) مجرى المتصل

---

(١) الدر المصون ٣/ ٢٥١ ط ١٩٩٤م.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٩، والدر المصون ٣/ ٣٦٧.

(٣) المحتسب ١/ ٢٤٧ بإطالة ألف «إذآ»، وشواذ القراءة للكرمانى ورقة ٨٥، وإعراب القراءات الشواذ ١/ ٥٣٦.

(٤) الدر المصون ٣/ ٢٦٦، ٢٦٧ط ١٩٩٤م.

نحو «الضالّين» و«جانّ»[1] - استغنى عن همزة الوصل، فالتقى ساكنان: الألف اللينة فى آخر الظرف (إذا)، وأول المدغمين فى (ادَّاركوا) بعد الاستغناء عن همزة الوصل، وذلك مسموح به فى الكلمة الواحدة، نحو: دابّة ودوابّ، وشابّة وشوابّ، وفى مثل هذا الموقع الذى تسبق فيه الألف أو الواو أو الياء اللينة الحرف الساكن للإدغام يطال فى مدّ هذه الأحرف، وذلك ما أشار إليه ابن جنى فى قوله: «قد تجدهن فى بعض الأحوال أطول وأتم منهن فى بعض»[2].

● ومن الشواهد أيضًا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ [يس: ٦٠].

قرأه الجمهور «أَعهد» بفتح الهمزة والهاء[3]، وقرأه يحيى بن وثاب «أَحَّدْ» بحاء مشددة[4].

والأصل (أعهد) كما قرأ الجمهور، ثم تطورت هذه الصيغة بفعل المماثلة على مرحلتين: المرحلة الأولى: حدث فيها أن تأثر صوت العين المجهور بصوت الهاء المهموس تأثرًا رجعيًا فى صفة الهمس، فتحولت العين إلى حاء مهموسة، وصارت الصيغة «أحهد» بإبدال العين حاء.

وحكى الزمخشرى أنه قرئ بهذه الصيغة، وأنها لغة هذيل[5]، وقد نسبها أبو حيان إلى تميم[6]، وهذه القراءة هى المرحلة الوسطى بين قراءة الجمهور السابقة وقراءة يحيى بن وثاب التى أشرنا إليها، وسنزيدها إيضاحا بعد قليل.

ولا غرابة فى أن يعزى إلى هذيل قلب العين حاء إذا جاورت العين صوتا مهموسا، كما فى «أحهد»، وكما فى قراءة ابن مسعود «إذا بحثر ما فى القبور» بالحاء[7]، لأن فى ذلك تحقيقا لنوع من المماثلة فى صفة الهمس، وهو يؤدى إلى التيسير على الناطقين، وإلى الانسجام بين الأصوات فى الصفات.

---

(١) ينظر المحتسب ١ / ٢٤٨، والدر المصون ٣ / ٢٦٧.
(٢) سر صناعة الإعراب ١ / ٢٠ ط - الحلبى ١٩٧١م.
(٣) البحر المحيط ٩ / ٧٧.
(٤) السابق، والدر المصون ٩ / ٢٨٠.
(٥) الكشاف ٤ / ٢٣ ط - دار الريان ١٩٨٧م، والدر المصون ٩ / ٢٨١.
(٦) البحر المحيط ٩ / ٧٧.
(٧) العاديات / ٩ - وينظر لغة هذيل ١١٣.

وهذا الفعل من هذيل لا يتصادم مع ما عرف عنها من قلب الحاء عينا فيما عرف بالفحفحة، والتى جاءت عليها قراءة ابن مسعود «عتى حين» بإبدال حاء (حتى) عينا[1]؛ لأنهم فى هذا الموقع يحققون نوعًا من المخالفة الصوتية بين المهموسات الثلاثة فى (حتى حين): «الحاء والتاء والحاء» فابدلوا من الحاء الأولى «أنصع الحروف»[2] وأبينها فى الجهاز النطقى وهو العين.

المرحلة الثانية: تطورت فيها الصيغة الهذلية (أحهد) إلى الصورة التى وردت عليها قراءة يحيى بن وثاب «ألم أحَّد»، حيث قلبت الهاء حاء، وأدغمت الأولى فى الثانية، وذلك على سبيل التأثر التقدمى، لأن الحاء أثرت فى الهاء، وجذبت الأولى الثانية إلى مخرجها، وكان ذلك لأن الحاء أقوى من الهاء المهتوتة المتصفة بالضعف والخفاء[3].

وهذا الذى قلناه يتفق مع ما قرره سيبويه عندما تحدث عن الحروف المتقاربة التى يدغم بعضها فى بعض، فقد ذكر أن العين إذا اجتمعت مع الهاء كقولك «اقطعْ هلالا»[4] كان البيان أحسن[5]، والإدغام يقع لقرب المخرجين (للعين والهاء)، فتحول الهاء حاء، والعين حاء؛ لأن الحائين أخف فى الكلام من التقاء العينين، والمهموس أخف من المجهور، ويصدق هذا قول بنى تميم فى الإدغام: (مَحُّم) يريدون معهم، وقولهم: (مَحَّاؤلاء) يريدون مع هؤلاء[6].

وقد ذكر السمين الحلبى فى عبارة صريحة أن الصيغة التميمية قد تطورت عن الصيغة الهذلية، وذلك فى قوله: «إن أصل أحَّد» «أحهد» فادغم[7].

---

(١) المختصر لابن خالويه ٦٨، البحر المحيط ٥ /٣٢٧، والمزهر ١ / ١٣٣، واللسان وتاج العروس (فح).

(٢) مقدمة العين للخليل بن أحمد ١ / ١٧، ٥٣، والمزهر ١ / ٩٠.

(٣) قال ابن جنى فى سر الصناعة ١ / ٧٤: «من الحروف المهتوت وهو الهاء، وذلك لما فيها من الضعف والخفا»، وفى لسان العرب مادة (هتّ): المهتوت ما ليس بمضغوط؛ لما فيه من الضعف والخفا كالهاء، وانظر مقدمة العين ١ /١٧، ٥٧.

(٤) هذا المثال نظير الفعل (أعهد) فى مجاورة العين للهاء، غير أنهما فى المثال من كلمتين.

(٥) والبيان يوافق قراءة الجمهور (ألم أعهد)، وهى اللغة الحجازية النموذجية.

(٦) الكتاب ٤ / ٤٤٩، ٤٥٠ بتصرف. (٧) الدرالمصون ٥ / ٤٩١ ط ١٩٩٤م.

وليس بغريب أن تكتفى هذيل بالتطور الأول ولا تتعداه؛ لأن الهذليين حلقة وسطى بين الحضريين من الحجازيين وبين الموغلين فى البداوة من تميم وغيرهم[١]، أما تميم فيناسبها أن تتجاوز الطور الأول إلى الطور الثانى؛ لأنه يحقق لها السرعة فى الأداء، وقدراً أكبر من الانسجام الصوتى، ويوفر الراحة لأعضاء النطق؛ ذلك «لأن لكل صوت حركتين فى أعضاء النطق، إحداهما أمامية، والثانية خلفية، فالأولى خاصة بوضع أعضاء النطق الوضع الملائم لحدوث الصوت، والثانية تعطى وضع الراحة لهذه الأعضاء، والإدغام يوفر الحركة الثانية من الصوت الأول إذا أدغم فى الثانى المماثل أو المقارب له، فتصدر حال الإدغام ثلاث حركات للصوتين بدلا من أربع؛ إذْ يأتى وضع الراحة وهو الحركة الخلفية مرة واحدة بدلا من مرتين»[٢].

وليس من المستبعد كذلك أن تكون الصيغة المنسوبة إلى تميم «أَحَّد»[٣]، قد انتشرت بين غيرهم من قبائل البدو، وبخاصة قبيلة بنى أسد، يرشح ذلك ويقويه انفراد يحيى بن وثاب بتلك القراءة كما ذكرنا، وهو كوفى من موالى بنى أسد[٤].

* * *

(١) ينظر فى هذا لغة هذيل د. عبدالجواد الطيب ص ١١٣.

(٢) هذا كلام هفنر فى General phonatices ص ١٧٦، نقله الدكتور عبدالغفار هلال فى بحثه «الإدغام والفك بين القراء واللغويين» ص ٥٣، ٥٤ العدد الثامن من مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة.

(٣) ينظر المختصر لابن خالوية ١٢٦، والكشاف ٣/ ٣٢٧، والبحر المحيط ٩/ ٧٧، والدرالمصون ٩/ ٢٨٠.

(٤) ينظر اللهجات العربية فى القراءات القرآنيةد. عبده الراجحى ١٤٨.